

آراء

العراق.. تسعينيات القرن الفائت العائدة

عمار السواد

الصدريون، وفي مقدمتهم زعيمُهم مقتدى الصدر، ظاهرةٌ شعبية عراقية من وجهة نظر كانت تتمسك بها النخبُ المنتمية إلى الإسلام السياسي الكلاسيكي، الشيعي تحديداً. لهذا، تم التعامل معهم بعيد عام 2003 على أنهم إسلاميون من الدرجة الثانية. تعمقت هذه الرؤية بعد جريمة قتل عبد المجيد الخوئي نجل المرجع الديني السابق، أبو القاسم الخوئي، والمتهم بقرار قتله مقتدى الصدر.

هنا انقسمت الشيعية السياسية «الكلاسيكية» إلى ثلاثة أقسام: المجلس الأعلى بقيادة عبد العزيز الحكيم، حزب الدعوة وأبرز شخصوه حينئذُ رئيس الوزراء الأسبق إبراهيم الجعفري، وحزب الدعوة «تنظيم الداخل» بزعامة هاشم الموسوي. القسم الأول نظر إلى الصدريين بكراهية، وسعى عبد العزيز الحكيم، زعيمُ المجلس آنذاك، بكل ما امتلك من نفوذ، إلى إبقاء الصدريين بعيداً عن المعادلة السياسية.

أذكر حين كنت مراسلاً لوكالة أنباء عربية، وتحديداً نهاية عام 2003، أن وائل عبد اللطيف، وهو قاضٍ شغل منصب محافظ البصرة وعضو مجلس الحكم وقتها ثم صار وزيراً في حكومة إباد علاوي، أخبرني أن المجلس الأعلى لم يذخر جهداً لعدم إشراك الصدريين في الحياة السياسية، بمعنى إبقاء الصدريين حالة مازقة عن الولاء الشيعي للعلوية السياسية الجديدة.

هذا الوضع جزءٌ من إرث تسعينيات القرن الماضي، حين استعر العداة بين المرجع محمد الصدر، والد مقتدى، وإيران والمجلس الأعلى الموالي لها. وسبب العداة أن الصدر نادى بولاية الفقيه القطرية أو المحلية ضد ولاية الفقيه العابرة الحدود، وطرح نفسه ولياً فقيهاً مقابل مرشد الثورة في إيران علي خامنئي. وكان رموزُ المجلس الأعلى، وبينهم صدر الدين القبنجي، يشنون حملات ضد الصدر الأب، ويعتبرونه مجرد أداة بيد نظام الرئيس الأسبق صدام حسين. ولهذا حكاية تحتاج مجالاً آخر للحديث عنها.

في الطرف الآخر، نظر حزبُ الدعوة إلى الصدريين نظرة استعلاء واستفمار في آن. احتوى الدعاة الصدريين بعد هروبهم من العراق عام 1999 إلى إيران وسورية، أو هكذا ظنوا. وكانوا يظنون أنهم مفيدون لبناء شعبية لم يكونوا يمتلكونها في البلاد، غير

أن منظازهم كان نظرة النخب إلى «العامة»، وفعلاً استفاد الحزب من الصدر كبيضة القنآن أكثر من مرة، منذ عام 2005، لترجيح كفة مرشحهم لرئاسة الوزراء على حساب مرشُح المجلس الأعلى.

حزب الدعوة تنظيم الداخل هو انشقاق على الحزب الرئيس نهاية تسعينيات القرن الماضي، كان أقرب إلى الصدريين من الآخرين. إلى درجة أنه، خلال معركة النجف ضد جيش المهدي عام 2004، ظل عبد الكريم العنزلي القيادي البارز في تنظيم الداخل والاسم المقرب جداً من إيران في سعي دؤوب إلى منع تدمير الصدر. وكان هو وأبرزُ مؤسسي البيت السياسي الشيعي أحمد الجليبي وسيطين رئيسيين لإشراك الصدر في الحياة السياسية.

بعد أكثر من 18 سنة، أصبح مقتدى الصدر اللاعبُ الأول في الحياة السياسية، لا منازع له. زعيم قادر على تحريك جمهوره العريض بطريقة، وصاحب الكلمة الفصل، إذ يحج إليه في النجف كلُ السياسيين، بعدما كان حجاجهم إلى المرجع علي السيسستاني. لم يعد بيضة القنآن، بل صاحب القرار. لم يعد الزعيم الشاب، ولم يعد مجرد قائد مليشيا، بل قوة لا يمكن التعامل مع العراق إلا بالتعامل معها. هو وجمهوزُه امتداد عراق التسعينيات، عراق الحصار، عراق صدام المنكسر والمهزوم والموجّه بعاطفة دينية، بما يعنيه ذلك من شعبية وعنف وحرمان ومحاولة للتعويض عن الخسائر واتكسارات بريد المصابون بها أن يستردوا هيبنتهم.

حاول الصدر على من الفترة الماضية أن يلعب دوراً لم يعدد عليه، قدّم نفسه رجلاً معتدلاً. أخبرني ناشط النقي مقتدى الصدر عام 2015، برفقة آخرين، أنهم، حين كانوا مجتمعين في غرفة بفندقٍ بعد اللقاء، سمعوا الباب يترق، وحين فتح أحدُهم الباب وجد شاباً يحمل كيساً أسود، بلغه أن «السيد» أرسل إليه وإلى صحبه قناني مشروبات كحولية. يقول صاحبي إنه استغرب، معلقاً لمن كانوا حوله في الغرفة إن الرجل يظن أن العلمانية مجرد نُرُوة. هو وعدد من زملائه الناشطين في تظاهرات عام 2015 كانوا مدعوين إلى النجف للقاء الصدر. ذهبوا بحماس للقاءه، لم يروه «وطنياً» فحسب، بل وجدوه متفهماً علمانيّتهم كذلك. كان صاحبي الناشط ساخرأ من الحال، لكنه أصر على أن زملاءه لم يكونوا كذلك، ليس بسبب الخمر المرسل إليهم في جنح الليل، ذهب بل بسبب مقولات الصدر الجديدة. ذهب

الصدر إلى أبعد من ذلك، ففي نهاية عام 2015 أو بداية العام اللاحق له، دافع عن ضرورة التعامل مع الأشخاص المخلين بطريقة قانونية ووفق منطق «إنساني». شجّع هذا كله التعامل مع الرجل وتجاره بطريقة مختلفة من الأقلية «العلمانية» ذات التأثير البالغ في حراك العراق. وهنا، لا نتحدث عن زعيم سياسي بشعبية مؤقتة، كنوري المالكي، بل عن شخصية لها شعبية ذات جمهور يتبعه في أي ظرف، ومهما كانت عقائده وشعاراته، إلى درجة أن بعض جمهوره يقبل عجلات سيارته.

قدّم الصدر نفسه خلال السنوات الأخيرة خصماً للذهنية المليشياوية، حاول احتواء المختلفين أيديولوجيا معه وتقبلهم، دافع عنهم. لكنه في الجلسة الأولى للبرلمان يمثل أكثريته الناجحة بالانتخابات نجاحاً حاسماً، أرسل نوابه مرتدين أكفأنا بيضاء مكتوب على بعضها اسم «حشيش الإمام المهدي عح» أي اسم مليشيا مثلت واحدة من أصعب لحظات سفك الدم العراقي وحرب الجماعات الخارجة عن الدولة ومعركة توازن الربعب، وهي المليشيا نفسها التي حلها الصدر، وأسس على انقاضها مليشيا أخرى بمسمى «سرايا السلام». هذا هو المشهد العراقي، أكبر الكتل الفائزة تدخل البرلمان باكفأن مكتوب على بعضها اسم مليشيا سينة الصيت، وفي الوقت نفسه، تقدّم نفسها خصماً للمليشيات الأخرى التي يسمّيها الصدر «القدرة».

مناقسه الرئيسان، قائمة يقودها رئيس البرلمان الساعي إلى تقسيم العراق وتقديم نفسها زعيمة سنة البلاد، ورئيس وزراء سابق يعد أهم سادة خراب ما بعد خراب صدام حسين، أي نوري المالكي، وهو الأب الفعلي للمليشيات الشيعية المناوئة للصدر، كونه المسؤول الرئيس عن تأسيس من انشقاق قيادات الصدر عن جيش المهدي، وهو أيضاً المؤسس العملي للحشد الشعبي كردة فعل على احتلال مسلحي تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) الأراضي العراقية، حين كان هو نفسه قائداً عاماً للقوات المسلحة.

نتائجُ الانتخابات حصيلّة عدة عوامل؛ أولها أن قانون الانتخابات الجديد، الذي دافع عنه مقتدى الصدر، كان مفضلاً لينااسب هو قانون دوائر صغيرة، والمعتم السوارث لآل الصدر هو الوحيدُ القادر على تجنيد جمهوره للتصويت بخفاقة في دوائرهم الانتخابية. بذلك استفاد من مقاطعة شعبية

ينتظر مقتده الصدر رحيهَ السيستاني، والاربعة الكبار الذين رحل أحدهم قبل أكثر من عام، المرجع محمد سعيد الحكيم، كي يقدم نفسه منافساً على ميراثه الاسري

قيادة كانت شابة، مليشياوية، خلفها جمهور عريض من «غير المنطقيين» واصبحت الآن في المركز

”

واسعة لجات إليها الأغلبية الصامتة، حين لم تجد من يمثلها، أو فقدت ثقتها بحالة الوضع السياسي ونظامها.

قد يُنظر إلى الأمر أنه انتكاسة للعراق، مشهدٌ شعوي مشعب بأيديولوجيا السلاح الذي يحمل اسم السلام، إذ إن سرايا السلام المليشيا الأكبرُ والمقدمة نفسها كمعدلة ضد قتلة إيران في العراق، على الرغم من أن قادة جلّ القتلة جاءوا من خلفيات صردية. هو ليس انتكاسة، هو امتداد لحالة عراقية لم يتم التامل فيها طويلاً؛ حالة البلد المهزوم والمدخر بعدما كان يحلم باستعادة بنوخذ نصر وحمورابي وسركون الأكدي وهارون الرشيد. الشيعية السياسية «الكلاسيكية» جاءت من خارج التسعينيات، قفزتُ عليها، عادتُ إلى السبعينيات وبداية الثمانينيات يوم غادرت العراق. لهذا لم تكن معنيةً بما

“

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

جرى بعدها، لم تفهمها، لم تدرک تدايحاتها وما تركته من خدود في الروح العراقية التي أنتجت أغنية البرتقالة ذات الإيقاع المختلف تماماً عن إيقاع الأغنية التقليدية العراقية، الأغنية الحزينة.

الصدر هو الممثل الأهم لتلك المرحلة، مرحلة لا سياسة فيها، بل مقولات عريضة وعقائد متخمة ومعاينة حاضرة في الذاكرة، حين أسس جيش المهدي، لم يتردد أن يُلبس أفراداه الرداء الأسود، لم يكن مهتماً بالتشابه مع رداء خصمه تنظيم القاعدة، لأنّ الاثنین حملا روح مليشيا «فدائي صدام» مليشيا الملتزمين مرندي السواد.

صحيحُ أن تاريخ العراق الجمهوري كان صعباً، مليئاً بالدم، غير أن ما جرى في تسعينيات القرن الماضي مختلف، حالة ذات خيارات وسيمايويهاات وأوضاع لا تشبه ما مرّ به من قبل، ولا تشبه ما حصل بعد. هذه المرحلة تلقي بظلالها الآن، ليس من خلال الجوع والفقر، بل عبر من كانوا جباعاً وفقراء ومعدمين... الأمر يشبه الثورة الفرنسية، مقاضها أقامها الفقراء، على الرغم من مساعي نخبها رفع النسق العام لتفكير المجتمع. بالطبع، هي ليست ثورة، ولا فولتير في العراق كما لا روسو، لكن هناك شعبية تحولت إلى مليشياوية، قتلتُ، أنثُ، ارتكبتُ الهواثل، وهي الآن حاضرة على رأس البرلمان، معلنة بلا تردد انتماءها لجيش المهدي.

الصدر في هذه المعادلة لا يُنظر إلى إدارة الحكم في بغداد فقط، هو بريد النجف أيضاً، ينتظر رحيل السيستاني، وجميع الأربعة الكبار الذين رحل أحدهم قبل أكثر من عام، المرجعُ محمد سعيد الحكيم، كي يقدم نفسه منافساً على ميراثه الأسري. بريد حكم الأكثرية الذي كان معارضاً له قبل ثمانية أعوام، وإبعاد الخصوم الشيعية، ليكون زعيم الطائفة الوحيد، حسن نصر الله العراق، كي يفرض رأي الأكثرية. كيف سيكون ذلك؟ معرفة الجواب صعبة، وخيارات الآخرين، وفي مقدمتهم إيران، تبدو الآن مريكة.

في النهاية، هناك قيادة كانت شابة، مليشياوية، خلفها جمهور عريض من «غير المنطقيين». واصبحت الآن في المركز. هذا ليس نجاحاً للصدر بقدر ما هو استحقاق عراقي لا يمكن إعادة بناء البلاد من دون فهمه واكتوائها بناره، كما أكتوت بنيران أخرى وآخرين. سنتعلم أم لا؟ سؤال تقول نتاجها اللازمة.

(إعلامي عراقي في تلفزيون العربي)

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

”

جيش فيه بعد الولايات المتحدة، كما لديها

علاقات وثيقة مع أوكرانيا تطورت، أخيراً، لتشمل جوانب عسكرية. ومن جانب آخر، تحافظ على علاقة جيدة نسبياً أو، بشكل أدق، غير متوترة للغاية مع موسكو. كما لديها مصالح متداخلة معها في آسيا الوسطى والقوقاز والشرق الأوسط وشمال أفريقيا. في السنوات الأخيرة، تدهورت علاقات أنقرة مع الغربيين بفعل تعارض مصالحهم في قضايا دولية كثيرة. كانت الشراكة التي أبرمتها تركيا مع روسيا عقب إصلاح العلاقات بينهما بعد إسقاط الطائرة الروسية عام 2015 أحد الأسباب الرئيسية التي أتت إلى تدوير علاقاتها بالغرب، سيما الولايات المتحدة. على الرغم من ذلك، ظل موقف تركيا الداعم وحده الأراضي الأوكرانية. والرافض الاعتراف بضم روسيا لشبه جزيرة القرم، إحدى نقاط الالتقاء القليلة بين أنقرة والغرب. ومع ذلك، سعت أنقرة إلى تبني سياسة متوازنة في هذه المسألة من خلال رفض ضم القرم من دون الانضمام إلى العقوبات الغربية على روسيا، وتقديم نفسها على الدوام وسيطاً بين موسكو وكيف.

قبيل المفاوضات الروسية الغربية، حثّ وزير الدفاع التركي، خلوصي أكار، روسيا والغرب على تجنب أية استنزافات، في نداء يعكس مخاوف أنقرة من ارتدادات تفاقم الصراع بين الجانبين عليها. على مدى السنوات الماضية، حثت أنقرة باستمرار حلفاءها في «الناتو» على الالتزام باتفاقية مونترو لعام 1936، والتي تهدف إلى ضمان الاستقرار في منطقة البحر الأسود. على عكس معظم القضايا الدولية التي نجحت تركيا وروسيا في إدارة الخلافات بشأنها على قاعدة التعاون التنافسي، ظل التعارض بينهما حول المسألة الأوكرانية عقبة ثانوية في علاقاتهما. لكن هذه العقبة أضحت رئيسية الآن، مع تصاعد التوتر الروسي الغربي إلى مستوى يُعاد فيه رسم جغرافية خطوط المواجهة بين الطرفين علاوة على ذلك، يؤثر هذا التحول، بشكل مباشر، على

المكاتب
المكتب الرئيسي، لندن
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
الهاتف: 009611442047 - 009611567794
البريد الإلكتروني: info@alaraby.co.uk
Email: info@alaraby.co.uk
الاشتراكات،
alaraby.co.uk/subscriptions
الهاتف: +97440190635
جوال: 097450059977
للإعلانات:
alaraby.co.uk/ads

نائب رئيس التحرير
حسام كفتاني
مدير التحرير
ارست حوري
المحرر الفني
إسلام منعم
السياسة
جمانة فرحات
الاقتصاد
مصطفى عبد السلام
الثقافة
جوان درويش
منوعات
ليال حداد
الراب
معن البياري
المجتمع
يوسف حاج علي
الرياضة
نيك التليالي
تحقيقات
محمد عزام
مراسلون
نزار قنديل



تصدر عن شركة فضاعات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)